الفَصْلُ الْأوّل

العلاج النفساني قبل ظهور السيد المسيح

(١) العلاج بالسحر

(٢) تمهيد: السحر وتأثيره في النفوس

إن علاج الأمراض الجثمانية والعقلية بوسائل نفسانية ليس من مُبتكرات العصر الحاضر كما قلنا في المقدمة، ولم يترك القدماء للمحدثين إدراك العلاقة الوثيقة التي بين الجسم والعقل، فقد دلت الدلائل على أن القدماء كانوا يعتقدون أن للقلق النفسي تأثيرًا في إحداث الأمراض، وأن الإيحاء والاعتقاد في التخلص من المرض من عوامل البرء والشفاء.

ويميل بعض العُلماء إلى الاعتقاد بأن قطعًا من جمجمة الإنسان كانت تُستخدم في قديم الزمان تمائم يُقصد بها الشفاء من المرض؛ فصناعة الطب النفساني قديمة مرَّت عليها الأجيال وتعاقبت الدهور. ويكاد يكون الخلاف بين القُدماء والمحدثين في هذه الصناعة محصورًا في التأويل والتعليل، وربط الأسباب بالمسببات؛ فقد اعتقد القدماء أن التمائم والرُقى هي التي تُبرئ المريض، أما المحدثون فيرون أن السبب المباشر في الشفاء هو اعتقاد المريض وإيمانه بأنه سيبرأ بهذه الواسطة.

ومن مظاهر الاختلاف بين الفريقين التنظيم والترتيب، وبسط القواعد، وشرح الأصول ورجعها إلى حقائق أو مبادئ نفسية.

والطب جُثمانيًا كان أو نفسانيًا باعتباره علمًا مهذبًا، مفصلًا مبوبًا أو فنا راقيًا يستند إلى أصول وقواعد ثابتة هو في الواقع وليد السحر والشعبذة والتنجيم، وغيرها من الأعمال التي مارسها القدماء في مُعالجة المرضي. ولعل السحر هو أهم هذه وأبعدها أثرًا في مُعالجة الأمراض النفسانية.

يقول الراغب الأصفهاني[١] في المفردات: «السُّحارة ما ينزع من السَّحَر (طرف الحلقوم) عند الذبح فيرمى به...».

«وقيل منه اشتق السِّحر وهو إصابة السَّحَر. والسحر يُقال على معان الأول: الخداع وتخييلات لا حقيقة لها نحو ما يفعله المشعبذ بصرف الأبصار عمَّا يفعله لخفة يده، وما يفعله النمام بقول مُزخرف عائق للأسماع. والثاني استجلاب مُعاونة الشيطان بضرب من التقرب إليه... والثالث ما يذهب إليه الأغنام[٢]. وهو اسم لفعل يزعمون أن من قوته أن يُغير الصور والطبائع، فيجعل الإنسان حمارًا، ولا حقيقة لذلك عند المحصلين».

ويقول ابن خلدون[٣] في المقدمة في الفصل الذي عقده للسحر:

«والنفوس الساحرة على مراتب ثلاث يأتي شرحها؛ فأولها المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين، وهذا هو الذي تسمية الفلاسفة

---

١) هو الشيخ أبو القاسم الحسين بن مُحَمَّد بن الفضل الراغب الأصفهاني صاحب المؤلفات المفيدة في اللغة والفلسفة والأخلاق، وقد توفى في أوائل المائة الخامسة من الهجرة.

٢) الأَغنام الأَعاجم.

٣) وُلِدَ ابن خلدون سنة ٧٣٢ هـ وتُوفي سنة ٨٠٨ هـ.

السحر؛ والثاني بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد، ويُسمونه الطلسمات، وهو أضعف مرتبة من الأول. والثالث تأثير في القوى المتخيلة؛ يعمد صاحب هذا التأثير إلى القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف، ويلقى فيها أنواعًا من الخيالات والمحاكاة، وصورًا مما يقصده من ذلك، ثم ينزلها على الحس من الرائين بقوة نفسه المؤثرة فيه، فينظر الراءون كأنها في الخارج، وليس هناك شيء من ذلك، ويُسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة والشعبذة».

«هذا تفصيل مراتبه. ثم هذه الخاصية تكون في الساحر بالقوة، شأن القوى البشرية كلها، وإنما تخرج بالفعل بالرياضة. ورياضة السحر كلها إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل».

«واعلم أن وجود السحر لا مرية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذي ذكرناه، وقد نطق به القرآن.. وأما وجود السحر في أهل بابل وهم الكلدانيون من النبط والسريانيين فكثير، ونطق به القرآن وجاءت به الأخبار. زكان للسحر في بابل ومصر أزمان بعثة موسى عليه السلام أسواق نافقة، ولذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتنازعون فيه».

ويمضي ابن خلدون بعد ذلك فيُقرر أنه رأى بعيني رأسه بعض السحرة يتناولون السحر؛ من ذلك أنه رأى: «من يشير إلى كساء أو جلد ويتكلم عليه في سره، فإذا هو مقطوع متخرق، ويشير إلى بطون الغنم

كذلك في مراعيها فإذا أمعاؤها ساقطة من بطونها إلى الأرض».

وقد ورد في «قاموس الفلسفة وعلم النفس[١]» ما خلاصته:

«إن لممارسة السحر تاريخًا طويلًا فه ومن الأعمال التي شاع أمرها بين القبائل والأُمم البدائية، وقد ظل كثير من الناس يُمارسونه في جميع مراحل الحضارة، ولا تزال آثاره باقية حتى الآن في عصرنا هذا.

«ويُطلق السحر على أي عمل من مجموعة كبيرة من الأعمال المختلفة، التي تعزى إلى أسباب غامضة، او عوامل سرية، أو قوى خفية لا يعرفها عامة الناس».

«وقد استمد الساحر قوته من الآلهة أو من أرواح تأتي من عالم الغيب فتحتل جسده، وتُساعده على القيام بعمله. وكثيرًا ما كان السحرة يدعون أنهم يعملون أعمالهم السحرية بالاتصال بتلك الأرواح اتصالًا يخفى أَمره على بقية الناس».

وكان السحرة يستخدمون للوصول إلى أغراضهم وسائل كثيرة منها:

(١) سلطان إرادتهم ومقدرتهم على الاستهواء.

(٢) التمسك بعبادات وتقاليد مُفصلة مُعينة عند مُمارسة السحر بالفعل، كالإشارات والحركات التي كانوا يقومون بها للتأثير في نفوس الناس.

(٣) النطق بكلمات وعبارات مُغلقة بكل جد وخشوع وتوسل.

---

(٤) Dictionary of philosophy & Psychology. Edited by: Daldwin Article: «Magic».

(٤) إحراق تمثال العدو، أو إتلاف أي أثر من آثاره.

(٥) طرح النرد أو ما يُسمى بِطُرق الحصى أو أخذ الفال.

(٦) قراءة سلسلة من الخطابات أو الرسائل لاستخراج صفات صاحبها ومميزاته الشخصية».

«ومن بين الأغراض التي يرمى إليها الساحر:

(١) مُحاولة تأويل الماضي والإخبار بما غاب.

(٢) التأثير في مجرى المستقبل.

(٣) ضبط قوى الطبيعة والتأثير فيها.

(٤) القضاء على المرض أَو دفع الشر.

(٥) إعادة الصحة أو اجتلاب الخير.

«وقد اختلفت أسماء الممارسين للأعمال السابقة وما يشبهها، باختلاف وظائفهم أو طبائع أعمالهم فكان منهم: الساحر، والكاهن، والمنجم، والمشعوذ، والمتنبئ، والحاوي».

«ولم تكن أعمال السحرة وأقوالهم على العموم خيالية ولا وهمية، ولكنها مع ذلك تضمنت أُمورًا مُبهمة تنقصها الدقة والصراحة، بحيث تصلح لأن يؤولها كل شخص تأويلًا مُناسبًا لحالته، ويحوك منها خياله قصة كاملة يهش لها ويبش، وبخاصة إذا كان غير مُثقف».

هذه اقتباسات ثلاثة اختلفت في مبناها، ولكنها تكاد تتفق في

معناها، ومنها تعرف أن القدماء والمحدثين يكادون يجمعون على تقدير ما كان للسحر من تأثير في حياة الناس عامة وفى مُعالجة أمراضهم خاصة.

والسحر – باعتباره وسيلة طبية – يقوم على تأثير الساحر في نفس المريض بما له من قوة إرادة أو قدرة نادرة على الاستهواء. ومن الوسائل التي يتذرع بها للوصول إلى غرضه تلك التمتمات والهمسات والنفثات التي ينفثها في أُذن المريض بِطُرق خاصة، فيكون لها التأثير المطلوب.

فالسحر بهذا المعنى لا يعدو أن يكون إيحاء قويًا يتقبله المريض، ويصير ما يوحَى إليه من عقائده الثابتة، فيكون سببًا في شفائه كما هو مُشاهد في عصرنا؛ فالعامل المباشر واحد، ولكن التسمية اختلفت؛ فما يعمله البدائي «سحر»، وما يعمله المتمدين «طب».

(٣) العلاج بالسحر في مصر القديمة :

وأول ساحر مصري يقص علينا التاريخ قصصه بالتفصيل هو «إِمْحُتِبْ» رئيس مهندسي العمارة في عصر الملك «زُوسِر» أحد مُلوك الأسرة الثالثة المصرية التي يرجع تاريخها إلى القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد.

وقد مارس إمحتب هذا مهنة الطب النفساني والجثماني بمهارة. ومعنى اسمه: «من يأتي في سلام» وهذا يدلنا على مبلغ تأثيره في نفوس المرضى. وقد أسبغت عليه عِدة ألقاب كريمة منها: «صاحب الأسرار» و«حامي الأطباء» و«منبع الفضيلة» و«حامي الملاحين».

وكل هذا يدل على ما كان له من منزلة بين الشعب المصري بوجه

عام، ولما له من أسبقية ومهارة في مهنة الطب يرى بعض أطباء العصر أن ينصب إلهآ للطب.

وقد أتى بعده في مصر القديمة طائفة من مهرة الأطباء الذين نهضوا بهذه المهنة وارغموا العالم الحديث على الاعتراف بأن «علم الطب نشأ في وادي النيل».

العلاج بالسحر في بابل:

كان البابليون ينسبون جميع الأمراض إلى تأثير شياطين أو أرواح شريرة يقع المريض فريسة لها إما نتيجة لأعماله الشريرة، واما بتأثير بعض السحرة الذين يناصبونه العداء.

وقد كانوا يعتقدون أن هناك أروحًا خبيثة من أنواع شتَّى تنتهز الفرص لإلحاق الأذى بالناس، وأن لكل مرض شيطانًا خاصًا؛ كأَن من الشياطين إخصائيين في إحداث الأمراض، كما أن من الأطباء إخصائيين في معالجتها.

وكان الكهنة أو رجال الدين هم يتولَّوْن العلاج بالتسلط على تلك الأرواح وإبطال تأثيرها في المرضى.

وكان على القسيس الماهر أن يُنادي الروح المؤثرة باسمها ليتمكن من السيطرة عليها وابطال نفوذها، والقضاء على تأثيرها في المرض، أو ليستطيع إبطال نفوذ الساحر الذي سلطها على المريض، وبذلك يكون العلاج.

ومن أغرب ما كان يُتَّبع في العلاج أن الساحر بعد أن يُسيطر على

الروح المؤثرة يُحولها إلى مادة محسة ثم يقضي عليها؛ كأن يُحوّلها إلى إنا به ماء ثم يكسر الإناء أمام المريض فيراق ما به من ماء، أو يحّولها إلى تمثال من الخزف يربط بجسم المريض ثم يرفع عنه، أو إلى جسم خنزير يوضع فوق جسم المريض، ثم يرفع عنه ويقذف خارج البيت.

ومما كان يُتَّبع في علاج عُقدة اللسان أو التواء الأمعاء أن يؤتى بحبل عقدت فيه عدة عقد ثم يحلها الساحر واحدة واحدة، وهو يتمتم تمتماته التي نعهدها في المشعوذين.

وقد برع البابليون في التنجيم، وكانت لهم فيه الأسبقية، واعتقدوا أن لحركات الشمس والقمر والنجوم تأثيرًا في حياة بني الإنسان؛ ولذا كانوا في ذلك أساتذة اليونانيين واضعي علم الفلك، وأساتذة أطباء العقول الذين قالوا بوجود علاقة بين المرضى العقلي وحركات الأفلاك، وفى مُقدمتهم باراسيلوس[1] (١٤٩٣ – ١٥٤١م) الذي قرر أن الطبيب الذي لا علم له بعلم الفلك لا يستطيع أن يعرف أسباب الأمراض ولا طرائق علاجها، وأَن الحياة كلها صدرت عن الكواكب، وأَن الشمس هي المسيطرة على الرأَس، والقمر هو المسيطر على المخ، والمشترى هو المسيطر على الكبد، وزحل هو المسيطر على الرئتين، والمريخ هو المسيطر على الصفراء، والزُّهَرَة هي المسيطرة على الظهر، وأَن للمغناطيس تأثيرًا في مُعالجة الأَمراض.

وقد تأثر بهذه الآراء مِسْمَر **Mesmer** (١٧٨٠) من بعد، بل إنها

---

(١) Paracelsus.

شاعت من قبل في القرون المسيحية الأُولى وفي أَيام العرب، ولا تزال لها آثار باقية في عصرنا هذا.

(٤) العلاج بالسحر في بلاد الإِغريق:

ويُقرر عُلماء العصر أَن الإِغريق مدينون لقدماء المصريين والبابليين في معرفة الطب ومُمارسته بطريقة السحر الذي ذاع أَمره بين كثير من عامة الشعب الإِغريقي. وكان على الساحر أَن يسلك مسلكًا خاصًا في حياته، ويقوم بِأَعمال مُعينة قبل مُمارسته السحر وفي أَثنائه؛ كان عليه أَن يغتسل في أَوقات مُعيَّنة، وأَن يدهن جسمه بالزيت، وأَن يتجنب تناول بعض الأَطعمة وبخاصة السمك، وأَن يصوم في بعض الأَوقات، وأَن يلبس من الملابس الفضفاض الخشن الخالي من العقد والعرا والأَزرة، وأَن يكون مؤمنًا ثابت العقيدة، وأَن يُؤدي عمله بإِخلاص وأَمانة، وأَن يختار الوقت المناسب لعمله. وكانوا يُفضلون للأَعمال السحرية الليل، وغروب الشمس، وقبيل شروقها، وحينما يكون القمر هلالًا أَو بدرًا. وكان الساحر يحمل بعض أَشياء تجعل لشخصيته شأَنًا، وتُسهل عليه الوصول إِلى غرضه؛ كأَن يمسك بيده العصا السحرية، ويُعلق على ملابسه مفاتيح وخيوطًا مُختلفة الأَلوان، وقد يضرب بالطاسات ليؤثر بها تأثيرًا مُوسيقيًا.

وكانوا في بعض الأَحيان يعدون المرضى إِعدادًا روحانيًا في بيئة روحانية قبل معالجتهم، وكان هذا يتبع عادة في معابد (أَسْكِابْيُوسْ)[١] وبخاصة في معبده في مدينة (إِبيدوروس)[٢] التي كان المرضى يأوون إِليها من

---

٦) Asklepios.
٧) Epidaurus.

كل جانب جماعات، مُتجشمين متاعب السفر من جهات نائية، وكانوا بمجرد وصولهم يُقدمون القرابين الثمينة والهدايا القيِّمة ويضعونها عند مدخل المعبد، ثم يغتسلون بماء نافورة هُنالك.

وبعد تأدية هذه المراسم كان يُسمح لهم بدخول رواق المعبد ليناموا يومًا أَو أَكثر، ويستمعوا إِلى ما يُلقى عليهم من مواعظ ونصائح بليغة. وبعد هذا الإِعداد الهام كان يُسمح لهم بدخول المعبد نفسه، وهُناك يرون تمثال الإِله (أَسْكِلْبيوس) مصنوعًا من الذهب والعاج، فيُؤدون الصلوات، ويتوسلون إِليه أَن يشفيهم من أَمراضهم، وهُناك أَيضًا يشتركون في أَداء صلوات وأَدعية عامة. وبعد أَن يَصِلوا إِلى درجة ملحوظة من التأثر والانتعاش الوجداني يذهبون ليناموا على جلود الحيوانات التي ضحَّوا بها، أَو على جلود أُخرى تُعد لهذا الغرض.

ويرى كل مريض في نومه أَنت (أبولو) يُعالج مرضه الخاص، فإِما أَن يبرئه من مرضه، وإِما أَن يُطالبه بتقديم ضحايا أُخرى.

وكان لإِسكلبيوس معابد كثيرة في عهد الإِسكندر الأَكبر، وأَخذ أَهل رومية يعبدونه مُنذ سنة **٢٩٣** ق.م. وأُقيم له معبد على شاطئ نهر التبر، كما أُقيمت له معابد في أَماكن كثيرة في بلاد اليونان تشبه معبده في مدينة إِبيدوروس؛ منها معبد أَثينا ومعبد كوس.

وفي معبد كوس[١] هذا نشأت في سنة **٦٠٠** ق.م مدرسة طبية هي التي سُميت فيما بعد مدرسة بقراط (**٤٧٠ – ٣٧٠** ق.م)، وهي التي

---

٨) Cos.

أَصبح الطب بفضل جهود رجالها علمًا من العلوم الطبيعية. ويروي التاريخ عن هذه المدرسة أَنها كانت أَول مدرسة علمية أَصدرت رسائل طبية كاملة؛ أَشهرها رسالة عن المرض الرباني أَي الصَّرْع، الذي كان يعتقد القدماء أَنه من الله. وقد حمل كاتب الرسالة على هذه العقيدة وقرر أَن هذا المرض لا يمتاز من غيره بشيء؛ فله سبب طبيعي كغيره من الأَمراض، وإنما يعتقد الناس أَنه «رباني» لأَنهم لا يفهمونه، ولو كانوا يصفون كل ما لا يفهمون بأنه «رباني» ما كانت هُناك نهاية للأَشياء الربانية. وبهذا الأُسلوب حاول الكاتب القضاء على الخرافات التي كانت عالقة بِأَذهان الناس وإبعادها من عالم الطب، ومن ذلك الحين دخل الطب في عداد العلوم التجريبية.

وحوالي سنة ٣٨٠ ق.م ظهر أَمر أَفلاطون وتحدث في الجمهورية عن تفسير الأَحلام، ونصح بِأَن يُعزل مرضى العقول، وأَن يُعالجوا علاجًا خاصًا. ويُؤخذ من كلامه أَنه أَدرك تأثير الحالات النفسانية والانفعالات في صحة الجسم. قال على لسان طبيب يقول لسقراط: «لا ينبغي أَن تُحاول علاج الجسم بدون مُعالجة النفس، وإِذا أَردت أَن تحتفظ بسلامة رأسك وصحة جسمك فعليك أَن تبدأ بعلاج عقلك، فهذا أَول شيء».

وإِن أَفلاطون ليُوضح العلاقة بين شفاء الجسم وعلاج النفس حين يقول: «إِني أَفهم أَن أَطباء الإِغريق إذا استطاعوا علاج الجسم فإِنما يفعلون ذلك بوساطة العقل، وأَن مهنة الطب تشتمل تطهير الجسم والعقل معًا، فإِذا أُهمل أَحدهما فقد عُرِضَ الآخر للخطر، فليس هُناك ما يقوّي العقل غير الجسم السليم، ولكن النفس المنظمة تنظيمًا تامًا هي التي تجعل الجسم في صحة كاملة بما لها عليه من سلطان نافذ».

ولم يكن للرومان شأن يُذكر في الطب عامة، وفي العلاج النفساني بوجه خاص؛ فقد شاعت لديهم الأَفكار والعقائد الطبية التي شاعت في العالم القديم، أَما هُم أَنفسهم فلم يمدوا العالم إِلا بقليل جدًا من المعلومات الطبية.

أ) العلاج بالتديُّن والتطهُّر من الذنوب

لننتقل بعد ذلك إِلى جو آخر من أَجواء العالم القديم، وبيئة أُخرى من بيئاته؛ أريد جو اليهود وبيئة الإِسرائيليين في العصور القديمة؛ ذلك الجو الذي كان مُشبعًا بالروح الدينية إِلى حد كبير جدًا، وتلك البيئة التي فاضت بالأَنبياء والحكماء والمبشرين والمنفرين.

كانت الأَفكار والتقاليد العالمة بين اليهود تختلف عمَّا كانت عليه لدى اليونان والرومان؛ فقد كانت معارفهم محدودة، وكان ينقصهم ذلك الدافع النفسي القوي الذي دفع معاصريهم من اليونان إِلى مُمارسة البحث العلمي.

وكانوا يمتازون بطابع وراثي خاص بهم؛ ذلك هو: الشعور الديني النفساني القوي، الذي خير ما يقال عنه أَنه جعلهم أَقل ميلًا إِلى الاعتقاد في الخرافات والأَساطير والسحر والشعوذة.

وكان الإِله (يَهْوِه) إِلههم الواحد القادر على كل شيء، الذي بيده الحياة والموت وبإِرادته الصحة والمرض. ومع كونه بطبعه رءوفًا لا يلحق الأَذى بعباده، فإِنه في الوقت نفسه كالأَب الرحيم الذي يُعاقب أَولاده

على عصيانهم؛ فهو يضرب العاصي بالجنون والعمى وحيرة القلب[١].

فالذنوب إِذًا هي أَسباب الأَمراض، وهذه مرتبطة بتلك، كذلك كانت عقيدة اليهود التي شاع أَمرها فيما بينهم مُنذ نشأتهم الأُولى، وبقيت راسخة في أَذهانهم في عصور الربانيين. يقول ربي يوناتان: «إِن المرض يأتي من سبعة أَبواب هي: (١) السب، و(٢) سفك الدم، و(٣) الحنث في اليمين، و(٤) عدم العفة أَو الشره و(٥) الغرور، و(٦) السرقة، و(٧) الحسد».

ولما كان الإِثم هو سبب المرض لم يكن هُناك مُبرر للشكوى؛ فلم يكن على المريض إِلا أَن يُفكر فيما اقترب من آثام، حتى إِذا عرف إِثمه تاب منه وعزم على عدم العودة إِليه، واعترف به أَمام الإِله (يَهْوِه)، واستغفره وطلب منه الرضا، فإِذا وهب يهوه له المغفرة تم له الشفاء، وإِذا نزل بالشعب وباء عام كان على الجميع أَن يعترفوا بذنوبهم، ويطلبوا من الله المغفرة حتى يرتفع عنهم ما نزل بهم؛ ذلك لأَنهم اعتقدوا أَن الوباء العام عقوبة للشعب جميعه على ارتكاب الآثام.

ولكن ربط الإِصابة بالمرض بارتكاب الآثام أَصبح فيما بعد موضع تساؤل؛ فإِننا نرى (ربي مِئِير) يُقرر في ضوء قصة أَيوب أَن ليست هُناك صلة بين الأَمرين؛ فإِن أَيوب أُصيب بمرض خطير، مع أَنه كان تقيًا صالحًا، مُبرأً من الذنوب والآثام؛ لذا يعترف ربي مئير بأن تعذيب الله لعباده بِأَنواع العقوبات المختلفة من الأَسرار الخفية التي لا يدركها الإِنسان.

كان اليهود حينئذ يُعالجون أَمراضهم بالتوبة والرجوع إِلى الله، وكان

---

٩) سفر التثنية إصحاح ٢٨ – ٢٨.

أَشياخهم وأَحبارهم ينهونهم عن الاعتقاد في السحر والكهانة، ومع ذلك فقد صاروا فيما بعد يعتقدون بوجود الشيطان وبوقوفه منهم موقف العداء. وكذلك بوجود الأَرواح، ولكنهم لم يكونوا يستعينون بهم في علاج أَمراضهم، ولم يكونوا يرجعون إِلى السحرة والكهنة إِلا في استفتائهم عمَّا يكنَّ لهم المستقبل.

ثم شاع بينهم – إِبان ظهور المسيحية – الاعتقاد بوجود الجن والشياطين، وبِأَنهم أَسباب انتشار الأَمراض بينهم جسمية كانت الأَمراض أَو عقلية. هذا على الرغم من أَن التلمود يُقرر أَن الأَمراض جميعها جثمانية كانت أَو عقلية لا علاقة لها بمس الشيطان، أَو ضربة الجان، وأَنه من الممكن الشفاء منها بالعلاج الصحيح.

وعلى كل حال لم يُؤْثر عن اليهود أَنهم كانوا يُعالجون مرضاهم بالسحر، وكذلك ما في حكمه، إِذا استثنينا حالة واحدة، تلك أَنهم يهمسون في أُذن المجروح آية من سفر الخروج[1] هي: «إِذا أَصغيت لكلام الرب إِلهك، وعملت ما هو حق في نظره، واستمعت إِلى وصاياه، وحافظت على جميع فرائضه فلن أَرسل عليك أَي مرض من الأَمراض التي أَرسلتها على المصريين، فإِني أَنا الرب الذي يبرئك».

ولا ريب أَن الهمس في أُذن المريض بمثل هذا الكلام يريحه ويُهدئ أَعصابه، ويُهيئه للاعتقاد في الشفاء، ثم للشفاء بالفعل؛ على شريطة أَن يكون الهامس قوي الشخصية، قادرًا على أَن يجعل المريض يعتقد ما يقول

---

١٠) سفر الخروج ص ١٥ – ٢٠.

اعتقادًا جازمًا.

وقد كانت وظيفة الأَحبار ورجال الكهنوت من اليهود تتضمن مُمارسة العلاج، ومع هذا فقد كانت هُناك طائفة خاصة تتولى مهنة الطب، وكان هؤلاء الأَطباء موضع تقدير من الشعب، فقد كانوا يعتقدون أَن الشفاء من الله، ولكنه وهب للأَطباء القدرة على العلاج؛ ولذا كان المريض يُؤمر أَن يدعو الله لينقذه من مرضه ويستدعي الطبيب لعلاجه.

والمأثور عن أَنبيائه بني إِسرائيل أَن الله (يَهْوِه) قد حباهم القدرة على شفاء المرضى. ومما ذكر أَن أَشعياء النبي أَمر حزقيل الملك، وكان يشكو أَلم دمل، أَن يضع «لبخة» منا لتين فوق الدمل، وأَن اليسع أَمر نعمان أَن يستحم في نهر الأُردُنَّ سبع مرات ليشفى من المرض. والمعروف أَن ماء هذا النهر ليس له مزايا طبية.

وقد عُني اليهود أَكبر عناية بقطع دابر الأَمراض حتى لا يُصابوا بها مرة أُخرى؛ ولذا كانوا إِذا أُصيب أَحدهم بمرض يبحثون عن سببه، ويتعرفون الإِثم الذي ارتكبه المريض كيلا يرتكبوه مرة أُخرى.

وخلاصة القول أَن طبهم كان طبًّا وقائيًّا قبل كل شيء، وأَن طريقتهم التي عالجوا بها مرضاهم كانت الحياة الطاهرة الخالية من الآثام.

ب) شرح وتعليق

وبعد، فهذا عرض مُوجز للعلاج النفساني قبل ظهور السيد المسيح عليه السلام، ومنه نرى أَن الأَمراض العقلية وغيرها كانت تُعالج بإِحدى طريقتين هما:

(١) طريقة السحر على اختلاف صوره.

(٢) طريقة التدين والتطهر من الآثام.

وقد أَشرنا فيما مضى إشارة عابرة إلى السبب في نجاح السحر باعتباره وسيلة طبية. ولما لهذا الموضوع من أَهمية خاصة نزيده لك بيانًا وتفصيلًا فنقول: قد برهن علم النفس الحديث بالتجارب المختلفة على ما للاستهواء والمشاركة الوجدانية من آثار عظيمة فعالة في النفس، بل إنه قد بيَّن أَن قبول الإِيحاء والميل إلى المشاركة الوجدانية من النزعات الفطرية العامة التي جبلت عليها الطبيعة البشرية في كل زمان ومكان، كما تبيَّن أَن تأَثير الاستهواء لا يتم على الوجه الأَكمل إلا إذا توافرت شروط خاصة من أَهمها:

(١) قوة إرادة المستهوِى.

(٢) لباقته ومهارته في حُسن العرض.

(٣) قابلي المستهوَى وحسن استعداده لما يوحى إليه.

(٤) مُلاءمة الظروف الخارجية لنجاح التأثير.

فإننا ذكرنا ذلك ظهر لنا السر فيما أَصاب السحر والسحرة من نجاح، وعلمنا أَن ذلك يرجع بوجه خاص إلى أَمرين:

الأَول: ثقة الساحر من نفسه إلى حد بعيد جدًا، ومن مقدرته على أَداء وظيفته، بعد أَن يستعد لها استعدادًا كاملًا.

والثاني: اعتقاد المريض في كفاية الساحر من جهة، وفي أَن عمله مُنتج

مُحقق للغرض من جهة أُخرى. فلو كان المريض مُزعزع الإيمان بالساحر، ضعيف الاعتقاد في كفايته، أَو كان ضعيف الأَمل في الشفاء لضعف تأثير السحر أَو انعدم.

وإننا إذا درسنا صور السحر المختلفة وحاولنا تحليلها علميًا وجدنا أَن السحر في معظم صوره يؤول إلى التأثير بالاستهواء من جانب الطبيب، والإيمان وصدق الاعتقاد من جانب المريض. أَما فيما عدا هذه الصور فإن التأثير يرجع إلى التذرع بوسائل تقوم على التجربة.

ولقد يروق القارئ المعتز بشرقيته أَن يعرف أَن يعرف أَن عُلماء العرب وفلاسفتهم قد تكلموا في السحر وتأثيره كلامًا وافيًا شافيًا، يدل على ذلك ما نقلته باختصار عن الراغب الأَصفهاني وابن خلدون.

غير أَني أَرى أَن أَوفاهم حديثًا وأَشدهم تفصيلًا وتحقيقًا في دراسة هذا الموضوع هو العلامة مُحَمَّد فخر الدين الرازي صاحب التفسير المشهور[1].

يُقَرِّر هذا البحاثة الماهر أَن السحر في عُرف الشرع مُختص بكل أَمر يُخفى سببه، ويُتخيل على غير حقيقته ويجري مجرى التمويه والخداع.

ويرى أَن للسحر بهذا المعنى ثماني صور [2] أَعرضها هنا على سبيل الإيجاز واحدة واحدة؛ لِأُبين مبلغ انطباق القاعدة السابقة عليها:

---

١١) وُلِدَ في ٢٥ رمضان سنة ٥٤٣ هـ وتُوفي في يوم الاثنين عيد الفطر سنة ٦٠٦ هـ.

١٢) راجع الجزء الأَول من تفسيره المسمى مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير عند تفسير قوله تعالى: «وَاتَّبَعُوا مَاتَتْلُوا الشَّيَاطِين ُعَلَى مُلْك ِسُلَيْمَانَ» الآية. جـ ١ ص ٤٢٩ وما بعدها.

الصورة الأُولى: «سحر الكلدانيين الذين عبدوا الكواكب»:

كان هؤلاء يعتقدون اعتقادًا جازمًا في تأَثير الكواكب والأَجرام العلوية عامة في العوالم السفلية عامة، وفي الإِنسان بوجه خاص. ولعل هذه العقيدة أَتت لهم من مُشاهدة تأَثير هذه الأَجرام وما لها من فوائد ومضار، وما لدورانها وتقلبات أَحوالها من أَثر في اختلاف المواسم وتغير درجة الحرارة، وفي معرفة عدد السنين وحساب الزمن.

اعتقد السحرة كما اعتقد المرضى بقوة تأَثير هذه الكواكب، فإِذا ما استعانوا بها في مُعالجة الأَمراض، وكان نصيبهم النجاح فليس لنا أَن نعجب، ما دمنا نعلم أَن كلًا من الساحر والمريض يُؤمن إِيمانًا صادقًا أَن هذه الكواكب تجيب دعوة الساحر إِذا دعاها. أَما أَن هذه العقيدة مُطابقة للواقع أَولًا فأَمر ثانوي لا علاقة له بالحالة النفسية عند كل من الساحر والمريض؛ فالعقيدة أَمر نفسي ذاتي، وما عليه الواقع أَمر خارجي موضوعي، وليس من الضروري في حالتنا هذه مُطابقة كل من الأمرين للآخر.

أَلا ترى أَن الوهم بجميع صوره يُؤثر في النفس إِلى حد كبير جدًا على الرغم من أَن المتوهّم غير مُطابق للواقع؟ وأَلا ترى أَن الاستهواء يعمل عمله في نفسي المستوَى، ولو كانت الفكرة الموحى بها خيالية بحتة لا نصيب لها من الحق؟

ولو فرضنا في هذه الحالة أَن الساحر مدع مُخادع وأَن المريض انخدع بكلامه، واعتقد ما يقول لم يتغير الموقف؛ لأَن العنصر الفعال في الشفاء

هو حال المريض النفسية؛ فمتى اتجهت نيته إلى الشفاء، وامتلأَت نفسه تفكيرًا في الصحة، وبعدت عنه جميع الأَفكار الموقعة في المرض، بِأَي وسيلة من الوسائل، ولو بطريق الإِيهام والخداع –كان أَقرب إلى الشفاء.

الصورة الثانية: «سحر أَصحاب النفوس القوية، المستعلية على البدن القادرة على التصرف في العناصر الكونية بعد الرياضة المستمرة، والانقطاع عن المأَلوف من الملذات، والبُعد عن مُخالطة الخُلق»:

وهذه الصورة تختلف عن سابقتها في أَن الساحر هُنا يعتمد على نفسه وقوة إِرادته، ويقوم بعمله دون الاستعانة بقوى خارجية، فهو أَقرب ما يكون للمستهوِى أَو للمنوم المغناطيسي الذي يستخدم قوم إِرادته في التأَثير على الوسيط، وليس هُناك شك في أَن هذه الطريقة قد جربت ونجحت في كثير من الحالات في علاج المرضى.

والسر في نجاحها هو العامل نفسه وهو الاعتقاد في الشفاء؛ فالمريض لا يبرأَ إِلا إِذا ثبت في نفسه أَنه سائر في طريق الصحة، وإِنما يأَتي له هذا الاعتقاد من تأَثير من يتولى العلاج؛ بما له من قوة إِرادة ونفوذ فعال، وتسلط على إِرادة المريض، وتوجيهها حيث يشاء.

أَما تأَثير ذوي النفوس المستعلية في العناصر الكونية بعد الرياضة والاستعداد فقد أَقره الفلاسفة الإِشراقيون معتنقو الفلسفة الأَفلاطونية الحديثة. وقد نص عليه ابن سينا في كتابه الشفاء حيث قال[1]:

«وكثيرًا ما يُؤثر النفس في بدنٍ آخر كما يُؤثر في بدن نفسه تأثير العين

---

١٣) راجع كتاب الشفاء لابن سينا جـ١ ص ٣٤٥.

العاينة والوهم العامل، بل النفس إذا كانت قوية شريفة شبيهة بالمبادئ (العُليا) أَطاعها العنصر الذي في العالم وانفعل عنها، ووجد في العنصر ما يُتَصَوَّر فيها؛ ذلك لأَن النفس الإنسانية غير منطبعة في المادة التي لها، لكنها مُنصرفة الهمة إليها، فإن هذا الضرب من التعلق يجعل لها أَن تحيل العنصر المبدئي عن مقتضى طبيعته، فلا بُد أَن تكون النفس الشريفة القوية جدًا تجاوز بتأَثيرها ما يختص بها من الأَبدان، إذا لم يكن انغماسها في الميل إلى ذلك البدن شديدًا، وكان (أَي النفس) مع ذلك عاليًا في طبقته قويًا في مملكته جدًا فتكون هذه النفس تُبرئ المرضى وتمرض الأَشرار، ويتبعها أَن يُهدم طبائع وأَن يُؤكد طبائع، وأَن يستحيل لها العناصر، فيصير غير النار نارًا، وغير الأَرض أَرضًا، وتحدث أَيضًا بإرادته (أَي النفس) أَمطار وخصب، كما يحدث خسف ووباء، وذلك كله بحسب الواجب العقلي».

«وبالجملة فإنه يجوز أَن يتبع إرادته (أَي إرادة النفس) وجود ما يتعلق باستحالة إلى الأَضداد، فإن العنصر يطيعه (أَي يطيع النفس) ويتكون فيه (أَي في العنصر) ما يتمثل في إرادته (أَي إرادة النفس) [1]».لله درك أَيها الفيلسوف العظيم! فقد وفيت الموضوع حقه، ولم تدع فيه قولًا لقائل بعد هذا الكلام الصريح الواضح، الذي يُمكن أَن نستنبط منه بسهولة:

(١) تَأثير الوهم والعقيدة في الصحة والمرض، فهذا هو المقصود بتأثير

---

١٤) يستعمل ابن سينا النفس مُذكرًا ومُؤنثًا في هذا النص، كما يظهر من الضمائر الراجعة إليها، ويريد بالمبادئ العُليا المبدع الأَول والعقل الأَول، وغيره من العقول، والنفس الكلية، ويريد ب العنصر المبدئي؛ أَي عُنصر من العناصر الأَربعة المعروفة التي هي الماء والهواء والنار والتراب أَو الأَرض.

النفس في بدن نفسه.

(٢) تأثير النفس الشريفة القوية في الأَبدان الأُخرى.

(٣) تأثير هذه النفس في هدم الطبائع أَو تأكيدها واستحالة العناصر المبدئية.

(٤) رجع هذا التأثير إِلى مُشابهة النفس البشرية للمبادئ العُليا التي تُؤثر في العالم السفلي.

(٥) أَن وصول النفس إِلى هذه المرتبة مشروط باستعلائها على البدن وعلوها في طبقتها.

وهُناك نص آخر من كلام الإِمام الغزالي في الموضوع نفسه:

يقول رحمه الله[١]:

"وقد يتعدى أثر بعض النفوس (البشرية) إِلى بدن آخر، حتى يفسد الروح بالتوهم، ويقتل الإِنسان بالتوهم. ويُعبر عن ذلك بِأَنه إِصابة العين؛ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «إِن العين لتدخل الرجل القبر، والجمل القدر». وقال عليه الصلاة والسلام: «العين حق»".

«وإِذا كان مُمكنًا لم يبعد أَن تقوى نفس من النفوس على الندور قوة أكثر من هذا، فيُؤثر في هيولى العالم، بإِحداث حرارة وبرودة وحركة. وجميع تغاير العالم السفلي يتشعب عن الحرارة والبرودة والحركة... ومثل هذا يُعبر عنه بالكرامة والمعجزة».

---

١٥) مقاصد الفلاسفة ص ٣١٦ – ٣١٧.

هذه خلاصة رأي الفلاسفة الأَقدمين في تأَثير النفوس البشرية في عناصر الكون، وأَكاد أُوقن أَن العلم الحديث لم يصل بعد إِلى إِثبات هذا التأثير بالدليل العلمي التجريبي، ولكنه مع ذلك لا يقف منه موقف المنكر؛ فالعلم الحديث رحب الصدر لا يسرع إِلى إِنكار شيء، ولكنه أَيضًا لا يُسارع إِلى قبول نظرية من النظريات إِلا إِذا أَيدها البحث، وعاضدتها التجارب، وانسجمت مع نظام الكون العام.

وكم من أُمور كانت تُعد سحرية أَو مُعجزة ثم كشف العلم عنها اللثام، فأَصبحت من البديهيات المسلمات، وما عهد المذياع وناقل الصور (التليفيزون) والقنبلة الذرية منا ببعيد.

الصورة الثالثة: «الاستعانة بالأَرواح الأَرضية (الجن والشياطين) في التأَثير»، وشأَن هذه الصورة شأن الصورة الأُولى؛ إِذ أَن الاستعانة بالأَرواح الأَرضية كالاستعانة بالكواكب والأَجرام العلوية، فما قيل في هذه يُقال هُنا سواء بسواء. وقد علمت أَن الكلدانيين أَو البابليين كانوا يتبعون الطريقتين معًا في مُعالجة المرضى.

الصورة الرابعة: «التخييلات والأَخذ بالعيون بخفة الحركة وخداع الحواس». وهذا هو الذي يُسمى أَحيانًا «الشعوذة أَو الشعبذة»، وأَساسه النفسي كما ترى هو الوهم وخداع الحواس، الذي أَثبتته التحارب السيكولوجية، وأَقره الباحثون قديمًا وحديثًا.

ومرده إِلى أَن الحاسة قد تنخدع فتحس إِحساسًا مُخالفًا للواقع، وقد يصل الإِنسان إِلى درجة الخبل فيُصور له خياله أَشياء لا وجود لها مُطلقًا؟،

ويقوم نحوها بِأَعمال تدل على ما فيه نفسه من تخيلات وأَوهام، فيُحاول الجلوس على الكرسي المتوهم، أَو يُحاول مُعانقة الحبيب الخيالي، وهذا كله مُفصل في كُتب علم النفس فلا داعي للإِطالة في بحثه هُنا.

الصورة الخامسة: «الإِتيان بالأَعمال العجيبة التي تظهر من الآلات المركبة على النسب الهندسية؛ كعمل تمثالين لفارسين يتحركان ويقتتلان، ولا يقتل أَحدهما الآخر، وكفارس على فرس في يده بوق، كلما مضت ساعة من النهار ضرب البوق من غير أَن يمسه أَحد».

الصورة السادسة: «الاستعانة بخواص الأَدوية؛ كأَن يجعل في طعامه بعض الأَدوية المبلدة المسكرة؛ نحو دماغ الحمار، إِذا تناوله الإِنسان بلد عقله».

وهاتان صورتان كان يعدهما القُدماء من الأَعمال السحرية التي لا تعرف أَسرارها، ولكن التقدم العلمي الحديث قد جعلها في عداد البديهيات.

ولا ريب أَن من قاموا بهذه الأَعمال في العصور التاريخية قد علمتهم التجارب بعض الخواص الطبيعية، فاستخدموا معارفهم البدائية هذه في تركيب الأَدوية الخاصة، وعمل تلك الآلات المتحركة التي نجد أَنواعًا كثيرة منها، ومما هو أَرقى منها بين لعب الأَطفال في الوقت الحاضر.

فليت شعري ماذا يظن الإِمام الرازي وغيره من الأَقدمين لو أَن حياتهم رُدت إِليهم، وعادوا إِلى هذه الدنيا، ورأَوا ما فيها الآن مما يبهر العقول، ويُحير الأَلباب؟

الصورة السابعة: «تعليق القلب؛ وهو أَن يدعي الساحر أَنه يعرف الاسم الأَعظم، وأَن الجن يطيعونه وينقادون له في أَكثر الأُمور، فإِذا اتفق أَن كان السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز، اعتقد أَنه حق وتعق قلبه بذلك، وحصل في نفسه نوع من الرعب والمخافة. وإِذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة، فحينئذ يتمكن الساحر أَن يفعل ما يشاء».

وهذا هو الإِيحاء عينه، أَو الاستهواء نفسه المستوفى لشرطيه الأَساسين وهما:

(١) قوة إِرادة المستوِي واستعلاؤه على المستوَى بتلك الادعاءات والتمويهات.

(٢) ضعف إِرادة المستوَى، ووقوعها فريسة في يد المستهوِي يفعل بها ما يشاء. فإِذا استخدمت هذه الطريقة في العلاج ونجحت فليس لنا أَن نعجب؛ لأَن الأَمر بين والسبب ظاهر.

الصورة الثامنة: «السعي بالنميمة والتضريب[١] من وجوه خفيفة لطيفة».

وهذه الصورة لا تعدو أَن تكون إِيحاءً أَيضًا؛ فإِن النمام يستعين بقوة بيانه، وسلطان بلاغته على تزيين الأَفكار وتنميتها، ويقذف بها في قلب المنموم إِليه، فيتقبلها بقبول حسن، دون أَن يُطالب النمام بإِقامة الدليل العقلي على صحة ما يقول. فالنميمة المؤثرة هي في الواقع استهواء سلاحه البلاغة والبيان. وقد صدق الرسول حيث قال: «إِن من البيان لسحرًا».

---

١٦) التضريب = التحريض.

ومن الطُرق المتبعة الآن في العلاج النفساني طريقة تُسمى طريقة «تجدد التربية» (Re Education)، ومن أَهم عناصرها تزويد المريض بالأَفكار الصحيحة، والتخفيف من شأن مرضه ومن شأن أسبابه بعبارة بليغة مُؤثرة. فما أَشبه هذه بالصورة الثامنة والأَخيرة من صور السحر، التي ذكرها مُحَمَّد فخر الدين الرازي رحمه الله.

وخُلاصة القول أَن تأثير السحر في علاج الأَمراض يرجع في النهاية إِلى تأثير الاعتقاد والإِيمان في نفس المريض.

ولننتقل الآن إِلى الطريقة الثانية، وهي طريقة المعالجة بالتدين والتطهر من الآثام، وهي الطريقة التي شاع أَمرها بين اليهود.

وإِني أَقول وأَنا واثق مما أَقول إِن هذه الطريقة أَيضًا تقوم على أَساس الاعتقاد والإِيمان، ذلك أَن اليهودي المتدين المؤمن بصحة تعاليم دينه إِذا ارتكب إِثمًا من الآثام، وهو يعلم حق العلم أَن ارتكاب الإِثم يجعل الإِنسان عرضة للمرض، فإِنه لا بُد يتأثر بهذه العقيدة، فيمرض أَو يسير في طريقه إِلى المرض، فمرضه يكون حينئذ ناشئًا عن اعتقاده الجازم بِأَن ارتكاب الإِثم يُورث المرض.

وإِذا لحقه المرض وعرف سببه، ثم اعترف بإِثمه وتاب من ذنبه واستغفر ربه، واعتقد أَن ربه قد غفر له كان ذلك الاعتقاد أَيضًا سببًا مُباشرًا في شفائه من مرضه؛ لأَن دينه يرشده إِلى أَن التوبة أَو الاستغفار يكسب الصحة، ويذهب بالأَمراض.

فالاعتقاد بِأَن الذنب يُورث المرض هو الذي ينشأ عنه المرض أَو

الوباء، وكذلك الاعتقاد بِأَن التوبة تأتي بالصحة هو الذي ينشأ عنه الصحة والشفاء، فالأمر يرجع إِلى الاعتقاد في كلتا الحالتين. ولا ريب أَن هذا وذاك مُتوقفان على صحة إِيمان الشخص، ووثوقه ثقة لا تتزعزع بِأَن تعاليم دينه صحيحة صادقة لا يتطرق إِليها أَدنى شك، وإِلا لم يكن من الضروري ترتب المرض على الإِثم، ولا ترتب الصحة على التوبة.